إبـــراهيـــم عليه السلام

إبراهيم وآية البعث

كان أهلُ بابلَ[1] ينْعَمون برغد العيش، ويتفيَّئُون ظلال النعمة، ولكنهم كانوا يَخْطون في دَيَاجِير[2] الظلام، ويتردَّوْن في مهوى الضلالة، فقد نحتوا الأصنام بأيديهم، وصنعوها على أعينهم، ثم جعلوها أرباباً، ونصبوها آلهة وعكفُوا على عبادتها من دون الله الذي خلقهم، وأسبغ عليهم نعَمَهُ ظاهرة وباطنة.

وكان نمرُود بن كنعان بن كُوش قابضاً على زمام الملك في بابل، وحاكماً بأمره مستبدًّا برأيه، ولما رأى ما يتقلَّب فيه من نعيم، وما يتمتع به من سطوة الملك، وما يحيطُ به من قوَّة السلطان، ثم ما أطبق على القوم من جهْل، وما ران على قلوبهم من عمهٍ[3]، أقام نفسهُ إلٰهاً؛ ودعا الناس إلى عبادته؛ ولماذا لا يُلزمهم الخضوع له، ويطلبُ منهم عبادته وتعظيمهُ، وقد وجد الجهل فاشياً، والعقائد فاسدةً، والقوم في ضلال مبين! ألم يعبدوا الحجارة الصمَّاء، والتماثيل الجوفاء، وهي لا تسمع ولا تبصر، ولا تملك لهم نفعاً ولا ضراً! أمَّا هو فينطق ويفكِّرُ، ويُدرك ويشعر، ويُفيضُ عليهم الخير، ويدفع عنهم الشر، ويستطيع أن يصيِّر فقيرهم غنياً، ويجعل عزيزهم ذليلاً، وهو ذو قوَّة فيهم وصاحبُ سلطان عليهم.

في وَسط هذه البيئة الفاسدة، وفي بلدة فدام آرام[4] من هذه المملكة وُلدَ إبراهيم لأبيه آزر، ثم آتاهُ الله الرُّشد، وهداهُ إلى الحق، فعرف بصائب رأيه، وثاقب فكره، ووَحْي

---

(١) بابل: اسم ناحية منها الكوفة والحلة.

(٢) دياجير جمع ديجور: وهو الظلمة.

(٣) العَمَه: التحير والتردد وهو في البصيرة كالعمى في البصر.

(٤) ذكر في معجم البلدان ٤/٢٣٨: فَدّان وقال: قرية من أعمال حرّان بالجزيرة [شمال شرق الفرات] يقال بها ولد إبراهيم عليه السلام.

obeikandl.com

ربِّه أن الله واحد، وأنه المهيمن على الكون، المسيطرُ على العالم؛ وأدرك أنّ هذه الأصنامَ التي يعبدونها، وتلك التماثيل التي ينحتونها، لا تُغني عنهم من الله شيئاً، لذلك أزْمع[١] الدعوةَ إلى توحيد الله، وعزم على تخليص قومه من وَهْدَة[٢] الشّرْك، وحَمْأة[٣] الرذيلة، وأعَدَّ ليثنيَهم عن ضلالهم، واتخذ الأهْبة لردّهم عن غَيِّهم.

وقد كان إبراهيمُ مفعمَ[٤] القلب بالإيمان بربه، ممتلئاً بالثقة واليقين بقدرة خالقه، مؤمناً بما أوحى إليه، من بَعثِ الناس بعد موتهم، وحسابهم في حياة أخرى على أعمالهم؛ ولكنه أراد أن يزداد بصيرة وإيماناً؛ وثقة ويقيناً، وتطلّع إلى أن يَلمس الآية البينة على البعث، ويرى الحجّة الواضحة على النشور؛ فسأل ربه أن يُريَه كيف يُحيي الموتى بعد موتهم، ويبعثُهم بعد فناء أجسامهم؟ فقال الله له: أو لَمْ تُؤمِنْ! قال: بلى! قد أوحيتَ إليَّ، وآمنتُ وصدقتُ، ولكني تاقت نفسي للعِيَان[٥]، وامتدّتْ عيني إلى المشاهدة؛ ليطمئنّ قلبي، ويزدادَ يقيني.

ولمّا كان إبراهيمُ يقصِدُ إلى أن تطمئن نفسه، ويستقرَّ فؤادُه، أجاب الله سُؤْله، وأمره أن يأخذَ أربعة من الطير، ويضمّها إليه، ليتعرَّف أجزاءها، ويتأمل خَلْقها، ثم يجعلها أجزاء، ويفرّقها أشلاء[٦]، ويجعل على كل جبلٍ منهنّ جُزءاً، ثم يدعوهنّ إليه، فيأتينَه سَعْياً بإذن الله.

فلما فعل صار كلُّ جزء ينَضمُّ إلى مثله، وعادت الأشلاءُ كل في مكانه، وسرعان ما سرَت فيها الحياةُ، ورجعت إليها الرُّوح، وسعت إليه بقدرة الله، وسارت إليه بإرادته، وهو يَرَى آياتِه البينة، وقدرتَه الباهرة التي لا يعجزها شيء في السمٰوات ولا في الأرض.

هذه الطيور قد أزهق رُوحَها، ومزّق أجسادَها بيده، ثم تناثرت أشلاؤها، وتفرّقت أعضاؤها على عَيْنِه، ولما دعاها أقبلت عليه، واجتمعت إليه، ثم تماسكت أجزاؤها،

---

(١) أزمع: عزم وجد وثبت.
(٢) الوهدة: الأرض المنخفضة.
(٣) الحمأة: الطين الأسود المنتن.
(٤) مفعم: مليء.
(٥) عاين معاينة: رآه بعينه، ولقيته عياناً: لم أشك في رؤيتي إياه.
(٦) أشلاء جمع شِلو: وهو العضو، وأشلاء الإنسان وغيره: أعضاؤه بعد التفرق والبلى.

واتّصل ما تفرّق منها، وعادت إليها الحياة، وما مِنْ أحد يرى ذلك ثم يُساوِره شكٌّ، أو يَتَخالَجه رَيْب في قُدْرَة الله على بَعث الموتى من مَرَاقدهم، ونَشْرهم من قبورهم؛ سبحانه! إذا أراد شيئاً فلا مردّ له، وهو العزيزُ الحكيم.

إبراهيم يتلطف في دعوة أبيه

وكان آزرُ يعبد الأصنام، بل كان ممن يَنْحَتُها ويَبِيعُها، وهو أقربُ الناس إليه وألصقُهم به، وأولاهم بالهداية، وأجدرُهم بإخلاص النصيحة، فمن البرّ به أن يَهديَه سواء السبيل، ثم هو أيضاً من المسوين خَلْقها والناحِتين لها، والداعين إلى عبادتِها؛ إنه لذلك داعيةُ إثم، ومبعث فِتْنة، فهدايتُه قُرْبى إلى الله، واستئصال لبذور الشر، واجتثاث[١] لجذور الضلال.

لم يبدأ الدعوة مع أبيه بتَسْفِيه معبوداته، أو تحقير آلهته، لئلا ينفر منه، أو يُصِمّ آذانه عنه، أو يرميَه بالعقوق والجحود؛ بل رتّب الكلام معه على أحسن اتساق، وخاطبه بالقول اللين، والأدب الجميل، وابتدأ حديثه معه بذكر نبوّته، ليستثير عطفه ويَمسَّ شَغَاف[٢] قلبه؛ ثم يسأله عمّا يدعوهُ إلى رُكُونِه إلى الأصنام، وعُكوفه على عبادتها، مع أنها لا تَسمع دعاءه وثناءه، ولا تبصر خُضوعَه وخشوعه، ولا تُستَدفَعُ في بلاء فتدفعه، أو تُسْتَمنح شيئاً فتمنحه.

وخاف أن ينصرف عنه استصغاراً لشأنه، وامتهاناً لرأيه، فقال: يا أبت، إنه قد جاءني من العلم ما ليس لك، وأوتيتُ حظًّا من المعرفة لم تُؤتَه، فلا تستنكف[٣] أن تُـتَابعني، ولا تتخلف عن مُسَايَرَتي؛ وإن كنتُ لا أبلغُ شأوَك[٤]، أو أشارفُ سِنّكَ؛ ثم توسل إليه أن يتبع خطواته، ويسيرَ على هَدْيه، فذلك هو الصراطُ المستقيم، والطريق القويم.

ثم أراد أن يُزهِّدَه في أوثانه، ويَنْأى[٥] به عن عبادة أصنامه، فأبان له أنه بالعُكوف

---

(١) اجتث: انقلع.
(٢) الشّغاف: غلاف القلب أو سويداؤه وحَبَّته.
(٣) استنكف: أنِف وامتنع ويقال استنكف عن العمل: امتنع مستكبراً.
(٤) تشاءى ما بينهم: تباعد، الشأو: الأمد والغاية، ويقال إنه لبعيد الشأو: أي الهمة.
(٥) نأى عنه: بعد عنه.

عليها، والانقياد لها يعبدُ الشيطان، ويلتجىء إلى ساحته، وهو الذي عصى الرحمٰن، وتوعّد الناس بالإغواء؛ فهو عدوٌّ لا يُرشِدُ إلى خير، ولا يبغي إلا الهلاكَ والشرّ؛ ثم خوّفه سوءَ العاقبة وشرَّ المصير، ولكنه لم يصرِّح بأنّ العذاب لاحِقُه؛ والعقاب مُحِيق به، بِرًّا به، وتأدّباً معه، واستعطافاً له.

فلما عرض هذا الرُّشْدَ عليه، وأهدى هذه النصيحة إليه، أبى آزرُ مُتابعة رأيه، وأصرّ على عناده وكفره، وأقبل عليه بفظاظة الكفر، وغِلظة العناد، وتجاهلَ بُنُوَّته، وأنكرَ حَدَبَه[1] عليه وشفَقَته به؛ وتجهَّم له، وقال ـ محتقراً لشأنه، مُتَعَجِّباً من جُرْأته، مُنْكِراً عليه نصيحتَه ـ أراغِبٌ أنت عن آلهتي يا إبراهيم؟ لئن لم تنْتَهِ عن زَيْغِك، وترجع عن غَيِّك، وتَثُبْ إلى رشدك لأرجمنَّكَ بالحجارة، ولأرمينّك بهُجْرِ القول؛ فاحذر سَوْرَة[2] غضبي، وتجنَّب إثارة سُخْطي، واهجرني مَلِيًّا[3]، فليس لك في دارِي مكان، ولن تجد في قلبي أثارَة[4] من عطف، أو بقية من إحسان.

قابل إبراهيم تَهديد آزر بصَدْرٍ رَحْب، وتلقّى وعيدَه بنفس مطمئنة، ثم أجابه بما يُنبىء عن بره به، وإخلاصه النصحَ له، وقال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾[5] وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾[6].

وودّعه وانصرف، وهو كاسِفُ البال، محزون الفؤاد؛ لأن دعوتَه لم تجد آذاناً مُصغِيَةً عند أبيه، واعتزله لئلا يكونَ مُظاهِراً[7] له على الكفر، ومشايعاً في الشّرْكِ.

* * *

(١) حدب عليه: انحنى وعطف.
(٢) سورة الغضب: شدته وحدّته وهياجه.
(٣) ملياً: دهراً طويلاً.
(٤) الأثارة: العلامة ـ أو البقية من الشيء.
(٥) حفياً: لطيفاً رقيقاً.
(٦) سورة: مريم، الآيتان: ٤٧ و٤٨.
(٧) ظاهر فلاناً: عاونه.

إبراهيم يحطم الأصنام

خاب رجاءُ إبراهيم حين أنكر عليه أبوه دعوته، وحزّ في نفسه أن يدعوَه إلى الخير فلا يستجيبُ إلى دعائه، وأن يهديَه إلى الخير فيبرأ منه ويَنْأى عنه؛ ولكن هذه الغلظةَ التي بدَتْ من أبيه، وذلك الجفاء الذي ظهر منه لم يقعداه عن متابعة دعوته إلى الحقّ، ولم يَثْنياه عن النّكير[١] على قومه إشراكهم بالله، وعبادتهم الأصنام من دونه، بل أزْمَعَ أن يمحوَ هذه العقائد الفاسدة، ولو ناله في ذلك أذى كثير، ولحقه شَرّ مُسْتَطِير.

كان إبراهيمُ ذكِيّ الفؤاد، صائبَ الرأي، ثاقبَ الفكر؛ فرأى أن الحجة القولية، والبرهان اللفظيّ، وإن وضحا وضوحَ الصبح؛ لا ينبتان نباتاً حسناً في هذه الأرض الجُرُز[٢]، فأراد أن يشركَ أبصارَ القوم مع بصائرهم؛ وحواسّهم مع أفئدتهم في تفهُّم عقيدته، والوقوف على حقيقة دعوته؛ علّهم يثوبون إلى رُشْدهم، ويرجعون عن غيِّهم.

انظر إليه يستدرجُهم إلى مُجادلته، ويَسْتَنْزِلهم إلى مجال محاورته، فيسألهم: ماذا تعبدون؟

أفاضوا الحديث في شأن أصنامهم، وأطنبوا[٣] في جَوابهم، مُعتزّين بعبادتها، معتدّين[٤] بالخضوع لها، وقالوا: نَعبُد أصناماً فنَظَلُّ لها عاكفين.

قد كان إبراهيم مُلهَماً في سؤاله، موفَّقاً في استفساره؛ فهو كالطبيب حاول أن يتحسّس الداءَ، ليصف الدواء، أو كالقاضي أراد أن يحملهم على الإقرار بارتكاب الجُرْم، والاعتراف باقْتِرافِ الذَّنْب، وهو في ذلك يُضَيِّق دائرة الجدل، ويجمع أشتات الخلاف في مسألة واحدة؛ فإذا أوْهنَ[٥] أسَاسَها، وقوّض[٦] أركانها، وأوضح بطْلانها فَقَد ألزمهم الحجّة، وحينئذٍ لا يجدون محيصاً من اتّباعه، ولا مناصاً من طاعته.

---

(١) النكير: الإنكار.
(٢) الجُرُز: الأرض الجدبة.
(٣) أطنب: بالغ وأكثر.
(٤) اعتد بالشيء: أدخله بالحساب والعد وهذا شيء لا يعتد به: لا يهتم به.
(٥) أوهن: أضعف.
(٦) قوَّض: هَدّم.

كرّ عليهم ينَقد زائِفَ آرائهم، ويبيّن فاسدَ اعتقادهم، فقال: هل يسمعونكم إذ تتوجّهون إليهم بالعبادةِ، ويُبصرونكم حين تقدّمون لهم الطاعة؟ وهل ينفعونكم أو يضرّون!؟

وما أقبح التقليد، وما أعظم كيْد الشيطان الذي استدْرجهم إلى أن حاكوا آباءهم في الكفر، وجارَوْهم في الشرك، وزيّن لهم عبادة التماثيل، فعفَّروا لها جباهَهم! وما أشدّ جَهلَهم حين اعتقدوا أنهم على حقّ! بل جدّوا في نصرة مذهبهم، وجادَلُوا أهلَ الحقِّ عن باطلهم، وما أوْهَى ما نطقوا به! وما أضعف ما أجابوا به! فقد قالوا: ﴿وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾[1].

أقرُّوا أنها لا تسمّعُ داعِياً، ولا تملِك لهم ضرًّا ولا نفعاً، واعترفوا بأنهم ما عَبَدُوها إلا اقتداءً بأسلافهم واتّباعاً لآبائهم؛ فجعلوا ما دَرَج عليه قومُهم، وما اهتدى إليه قدماؤهم دليلاً على استمساكهم بالحق، ورأوا قِدمَها برهاناً على استحقاقها للإجلال والتعظيم؛ فكانوا بذلك عن النظر الصحيح نائين، وعن التفكير السليم بعيدين.

قال إبراهيم: ﴿لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾﴾[2]، قالوا: أتنتَقِصُ آلهتنا، وتَسُبُّ أصنامَنا بالحق أم أنتَ من اللاّعِبين؟

قال إبراهيم: إني أقولُ لكم ذلك جادًّا لا هازِلاً، فقد جئتُكم بالدِّين القويم وأُرسلت إليكم بالهدى والحق المبين؛ فإنّ ربّكم الخليق[3] بالعبادة هو فاطرُ[4] السمٰوات والأرض، ومدبِّر شؤونهما، والقائم على أمورهما. أمَّا هذه الأصنام فلا تملكُ لنفسها نَفْعاً ولا ضراً؛ وهي حجارة صمّاء[5]، وخُشُبٌ مُسنَّدة[6]. فعليكم أن تجتَنِبُوا عبادتَها، وتنأوْا بأنفسكم عن الخضوع لها، واحذروا فِتْنة الشيطان وإغواءَه، وفكِّروا بعقولكم، وانظروا بأبصاركم، لعلَّكم تهتدون.

---

(١) سورة: الأنبياء، الآية: ٥٣.
(٢) سورة: الأنبياء، الآية: ٥٤.
(٣) الخليق: الجدير.
(٤) فاطر الأمر: ابتدأه وفطر الله العالم: أوجده ابتداءً.
(٥) الأصم: الصلب المصمت.
(٦) مسندة: ممالة إلى الجدار.

على أني قد سبقتكم إلى البُعْدِ عن عبادتها، وبادَرْتُ قبلكم إلى النَّأْي عنها، فلو كانت تضرُّ لضرَّتني، أو تملك شيئاً لنالت مِنِّي.

ثم أظهر لهم بديع صُنْعِ الله، وباهرَ قدرته، ليَتَبيَّنوا أثرَ حكمته، ويلمسوا الفرقَ الواضح والبَوْن الشاسع بين ما يَدْعُوهم إليه، وما يعبدون من أصنام لا تغني عنهم شيئاً، فقال: ألا تنظرون إلى ما تَعْبُدون من دون الله أنتم وآباؤكم الأقدمون؟ ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾[1]

ولمّا لم تنفعهم الحجة، ولم تُغْنِهم النُّذُر، وصدّوا عن سبيله، وأعرضوا عن دعوته، ورأى إبراهيم أن آذانهم صمّاء، وقلوبهم غُلْف[2]. وأنّهم ما زالوا متعلّقين بأوهامهم، متمسّكين بعبادة أصنامهم بيَّت الشر لها، وأقسم ليكيدَنّها[3] حتى يَرَوا أنها لا تضرُّ ولا تنفع، ولا تدفَعُ الأذى عن نفسها، فتدرَأه عنهم، ولا تلحق بهم ضرًّا إذا تركوا عبادتها، أو تُكسِبهُم خيراً إذا عكفُوا عليها، وأخلصوا لها.

وقد كان من عادة أولئك القوم أن يُقِيموا عِيداً لهم في كل عام، يقضون أيامه خارجَ المدينة، يُهْرَعُون إليه، بعد أن يَضَعوا طعاماً كثيراً في بيت العبادة، حتى إذا ما رجعوا من عيدهم أكلوه فَرِحين، وأقبلوا عليه مُغْتبطين[4]، وقد باركته الآلهة؛ وأضْفَتْ عليه الخير.

ولما هَمُّوا بالذّهاب إلى عِيدهم طلبُوا إليه أن يُرَافقهم، وسألوه أن يشاركهم في الخروج إلى ظاهِر[5] مدينتهم، فأبى أن يَصْحَبَهُم، وامتنع عن الانتظام في سِلْكهم، وقد عقد العزمَ على أن يَهدِمَ صَرحَ[6] آلهتهم، ويقوِّض عَرْشَ معبوداتهم؛ وادّعى العِلّة، وتظاهر بالسقم، ولم تكن به علّةٌ ولا مرض؛ ولكنه كان سَقِيمَ النفس، كاسفَ البال،

---

(١) سورة: الشعراء، الآيات: ٧٧ ـ ٨٢.
(٢) غُلف: جمع غلاف: وهو الغشاء يُغشي به الشيء.
(٣) كادها: أرادها بسوء.
(٤) غُبطَ غِبطة: حَسُنت حاله فهو مغبوط.
(٥) الظاهرة من الأرض: المُشرفة.
(٦) الصَّرْح: القصر العالي.

يتقطّع فؤادُه حزناً على إشراك قومه؛ ويتميزُ[١] غَيْظاً؛ لأنهم لم يلبُّوا نداءه، ولم يُصِيخُوا إلى دعوته.

ولما كانوا يخشون الدّاء، ويهابون الوَباء تَولّوْا عنه ولم يستمسكوا بدعوته؛ بل أظهروا الرِّضا عن تخلّفِه، والاقتناعَ بحجّته، وخرجوا إلى عيدهم مسرورين.

ها هي ذي المدينة قد خَلَتْ من أهلها وسكانها، وها هو ذا بيتُ العبادة قد أقفر، حتى كهَنته[٢] وسَدَنَتِه[٣]؛ فقد خرجوا جميعاً إلى ظاهر المدينة، ولم يتخلّف عن اللّحاق بهم إلا إبراهيم.

ولما خلا الجوُّ من العيون التي تترصَّده، واختفت الأبصارُ التي كانت تترقّبه، دَلف[٤] إلى أصنامهم، ودخل إلى بيت عِبادتهم، فوجد باحَةً قد اكتظّت[٥] بالتماثيل، وانتشرت في أرجائها الأصنام، ورأى الطعام متراكماً تحت أقدامها؛ فخاطبها متهكِّماً بها، محتقراً لشأنها: ألاَ تأكلون؟ ولم يجد منهم إصغاء، ولم يسمع منهم جواباً؛ فقال: ما لكم لا تَنْطِقُون؟ وأنّى للحجارة أن تنطق، وللخُشبِ المسنّدة أن تَعْقل؟

لا إخاله الآن إلا مُزدرِياً لقومه، محتقراً تلك الأصنام التي نَصبُوها آلهة، فصار يَلطِمها بيده ويَركلُها[٦] برِجْله؛ وأخيراً تملّكته سَورَة الغَضَبِ لدينه، واستولت عليه شِرّة[٧] الغَيْظِ لربّه، فتناول فأساً، وهوَى عليها، يكسِّرها ويحطِّم حجارتها؛ وما زال بها حتى جعلها جُذاذاً[٨]، وصيّرها حُطاماً، إلا كبيرهم فإنه أبْقَىَ عليه، ليَرجعوا إليه، ويسألوه عمن انتهك حرمةَ بيتهم، وكسر أصنامهم؛ حتى إذا استبانوا أنها لا تنطِقُ ولا

---

(١) تميَّز من الغيظ: تقطَّع.

(٢) كهنة جمع كاهن وهو: كل من يتعاطى علماً دقيقاً وعند غير المسلمين هو من ساغ له أن يقدم الذبائح والقرابين ويتولى الشعائر الدينية.

(٣) السَّدَنَة: جمع سادن وهو الحاجب.

(٤) دلف إليه: أقبل عليه.

(٥) اكتظ: امتلأ واشتد امتلاؤه.

(٦) ركل: رفس.

(٧) الشِّـرَّة: الحدة.

(٨) الجُذَاذ: المقطع أو المكسر.

تعقل، ولا تدفع عن نفسها مَنْ أرادها بسوء، ثابُوا إلى رشدهم، ورجعوا عن مكابرتهم.

تركها حجارةً مبعثرة، وخُشُباً متناثرة؛ وانصرف عنها، وهو مطمئن البال، قريرُ العين؛ لاستئصاله جذورَ الشر، وطمْسه معالمَ الشرك، وأقام يرقب ما يبدو منهم، وينتظر أثرَ فعلته في نفوسِهم، وأخذ العُدة لما قد يرمونه به، أو يجادلونه فيه.

ورجعوا من عيدهم، ورأوا ما حلَّ بمعبوداتهم فبُهتوا لِهَولِ ما رأوْا، وسُقِط[1] في أيديهم عندما وجدوا الآلهة متهَشمةً، والنُّصُبَ مكسّرة! وتساءلوا: مَن فعل هذا بآلهتنا؟ إنه لمن الظالمين!

قال قائلهم: سمعنا فتًى يقالُ له إبراهيم، يذكر آلهتنا ويعيب علينا عبادتها، ويَزْدريها ويحتقرها، فهو المجترىء عليها، والمحطِّم لها.

عَرَفوا إذن مَنْ تطاوَل على آلهتهم، واعتَدى على معبوداتهم، فاعتزموا أن يُوقِعُوا به من العقاب بمقدار ما ارتكَب من وِزْر، وما اجْترَم من ذنب، وثارت ثائرةُ القوم، ونادَوا بأن يَأتُوا به على أعين الناس، ليشهدُوا عليه بمقالته، ويَرَوْا ما يحلُّ به من القصاص.

ولا شكّ أن اجتماعَ القوم في صعيد واحد كان أُمنية إبراهيم التي طالما جاشت بها نفسهُ؛ ليقيمَ لهم الحجَّة جميعاً على بُطْلان ما يعتقدون، ويريهم البرهان على فساد ما هم عليه عاكفون.

تقاطَرَت[2] الوفودُ، وتكاثرت الجموع، كلٌّ يرغب في القِصَاص[3] من إبراهيم، ويودُّ أن يرى عقَابَه، ويشاهِد عذابه؛ ففي ذلك إرضاءٌ لِنفوسهم المتعطشة إلى الثأر منه، وإشباعٌ لرغبتهم المتوثِّبة للفتك به، ثم جاءُوا به وسط هذا الجمع الزاخر، وابتدوا محاكمته أمام هذه الجماعات التي تحرق عليه الأرم[4] حَنقاً وغيظاً، وقالوا له: أنْتَ فعلتَ هذا بآلهتنا يا إبراهيم؟!

ها هي ذي الفرصة قد سنحت لبلوغ مأربه وللوصول إلى مقصده، فسارَ بهمْ في

---

(١) سُقِطَ في أيديهم: ندموا وتحيروا.
(٢) تقاطر القوم: جاؤوا أرسالاً.
(٣) القصاص: أن يوقع على الجاني مثل ما جنى.
(٤) الأُرَّم: الأضراس ويقال فلان يحرق عليك الأُرّم: أي يحك أضراسه بعضها ببعض من الغيظ.

الجدال ناحيةً أخرى، وجَرَّهم بأسلوبه الحكيم إلى طريق لم يَقصده، ليُلزمهم الحجة، فيرجعوا إلى صَوَابهم ويثُوبوا إلى رشدهم، فقال: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾[1].

يا لها من حُجَّة دامِغَة قد صفَعهم بها صفعة نبَّهتم من غفلتهم، وأيقظتهم من غَفْوَتهم! فأقبل بعضهم عَلَى بعضٍ يتلاوَمُون، وقالوا: إنكم أنتم الظالمون، فتركتموها لا حافِظَ لها ولا رقيبَ عندها.

ثم أدركتهم الحَيْرَة، وعقد الحصر[2] ألسنتهم، فأطرقوا برؤوسهم مفكِّرين واستجمعوا شارِدَ عقولهم جامدين، ثم قالوا: لقد علمتَ يا إبراهيم أنها لا تردُّ سؤالاً؛ ولا تحيرُ[3] جواباً! فكيف تأمرنا بسؤالها، وتطلبُ إلينا الاستشهاد بها؟! أقَرُّوا بعَجْزِها عن الإصغاء إليهم، واعترفوا بقصورها عن العلم بما يجري حَوْلها، أو الشعور بما يقعُ عليها، وجَرّدوها من القدرة على أن تصدَّ المعتدين، أو ترد كيْدَ العادِين.

فأخذ يُبَكِّتهم عَلَى جهلهم، ويتأفّفُ من ثباتهم على الباطل بعد وضوح الحق وهو يتغيّظ من غفلتهم ومكابرتهم بعد انبلاج الصبح، ثم حضهم على الرويّة فيما ينطقون، والتفكر فيما يدعون، فقال: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾[4][5].

كانت على أعينهم غشاوَةٌ فلا يُبْصِرُون، وفي آذانهم وَقْرٌ، فلا يسمعون، وقلوبهم غُلفٌ فلا يعقِلون، فلما غُلبوا على أمرهم، وخافوا افتضاحَ حالهم، ولم تَبْقَ لهم حجة أو شُبهة، عدلوا عن الجدل والمناظرة؛ وعمدوا إلى القوة يَسْتُرون بها هزيمتهم، ويُخْفُون باطلهم، وقالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾﴾[6].

---

(١) سورة: الأنبياء، الآية: ٦٣.

(٢) حَصِرَ: منع من شيء عجزاً أو حياءً. ويقال: حَصِرَ القارىء عيَّ في منطقه ولم يقدر على الكلام.

(٣) حاور: جاوب، تحير: تجيب.

(٤) أُفٌّ: كلمة تضجُّر وتكرُّه.

(٥) سورة: الأنبياء، الآيتان: ٦٦ و٦٧.

(٦) سورة: الأنبياء، الآية: ٦٨.

إبراهيم يلقى في النار

أرادوا أن يعاقبوه بالإحراق، ولا ذنبَ له إلا أن قال: ربيَ الله؛ ولا جُرْم ارتكبه إلاّ نقمتُهُ على أصنامهم، وإنكارُه عبادَة أوثانهم، ولكنّ إعلان التوحيد والْجَهْر بدعوةِ الناس إليه، يُقِضُّ مضاجعَ الطُّغَاة ويكَدِّر صفو عيشهم لأنه يخلِّصُ الناس من رِبْقَة[١] استعبادهم، وتنكَشف به خبايا أراجيفهم[٢]، فيحذر الناسُ الوقوعَ في شِرَاكهم، وينفضُّون من حولهم، ويَهبُّون لدفع الْحَيْف[٣] عنهم وفي ذلك ذَهابْ سلطانهم، والحدُّ من طُغيانهم.

جاش[٤] خاطرُ إحراقه في نفوسهم، ولكن كيف يحرقونه؟ لا بدّ أن يُصْلوهُ ناراً حامية، تعادلُ لَظَى الحقْد المتأجّج في صدورهم. إنَّ شرارةً تكْفي لإحراق مدينةٍ بأسرها، ولكنهم أبَوْا إلا أن تكُون ناراً هائلة، وشرعوا يجمعون حَطباً من هُنا وهُناك، وجعلوا ذلك قُـرْباناً لآلهتهم، وبرًّا بمعبوداتهم، حتى إنَّ المرأة منهم كانت إذا مرضت نذرت: إن عوفيت لتجمعنَّ حطباً لحريق إبراهيم.

مكَثوا مدَّةً يجمعون الحطب، حتى تراكمت أعواده، وضاق المكان بأكوامه ثم ابتنوا حظيرة واسعة، وأشعلوا النار فيها، فاضطرمت وتأجّجَت واندلع لسانها وعلا لهيبها، وسطع ضَوْءُها، واحمَرَّ جمرُها، ثم قيّدوه وَرَمَوْا به فيها، وهم له كارهون، ولعذابه مغتبطون!

أُلقيَ في النار المُستْعرة[٥]، وقلبُهُ بالإيمان مُـفْعم، وثقته بالله شديدة، وصلته به وثيقة، وأملُه في النجاةِ وَطِيد[٦]؛ لذلك لم تزَعْزعه النكَبات، ولم تزلزله الحوادث، ولم تَـرُعْه النار؛ بل أقبل عليها بصدر رحب، ونفس مطمئنة!

---

(١) الرِّبقة: حبل ذو عُرى، يقال: لا يرضى الحُرُّ في ربقة الذل.
(٢) أراجيف: جمع إرجاف، وهو الخبر الكاذب المثير للفتن والاضطراب.
(٣) حاف عليه حيفاً: جار وظلم.
(٤) جاشت إليه نفسه: تحركت كأنها تطالبه بحاجة لها وهنا جاش الخاطر بمعنى جال.
(٥) استعرت النار: توقدت.
(٦) وطيد: ثابت وراسخ.

إنه الآن في جَوْفِ النار، يُخْفِيه دخانُها ويحتويه لهيبها، ويغلب على صوته زَفيرها وشَهِيقها؛ فماذا فعلت النار بإبراهيم؟

إنها أحْرَقت منه الوثاق[١]؛ فصار حُرًّا طليقاً، وأذهب الله عنها حدَّتها، وصعَّد منها حَرَارتها، وحفظه من لظَاها، وأنقذه من سعيرها، وجعلها عليه بَرْداً وسلاماً!

ولما خبا[٢] ضَوْءها، وانقشع دخانَها، وسكَن أوَارُها[٣]، وجدوه معافى سليماً ورأوه حُرًّا طليقاً، فعجبوا لحاله، وشُدِهُوا[٤] لنجاته، وانصرفوا عنه ناقمين، وتوارَوْا عن أعين الناس خَجِلين.

وهكذا تمثّلت الآيةُ الكُبرى، والمعجزةُ العظمى، غالبوه بالجدل فغُلِبوا على أمرهم، وفَزِعوا إلى القوّة فردَّ الله كَيْدَهم في نحورهم، ولجأوا إلى النار، فنزع الله منها طَبْعها، ودفع عنه أذى حرها، وأرادوا به كيداً فجعلهم الله من الأخسرين.

بُهِرَ الناسُ بتلك الآية الكُبرى، حتى أوشكُوا أن يُسْلِموا زمامَهم له، ويُلقوا قِيادَهم إليه، وكادوا يجمعون أمرهم على اتباعه، ولكن بعضهم آثر ما يتقلب فيه من نعيمُ الحياة وسؤدُدِها[٥]، وخاف غيرهم أن ينالهم أذى الكافرين والملحدين، لذلك لم يؤمن بإبراهيم إلا نفر قليل، كتموا إيمانهم عن القوم خوفاً من الطُّغَاة، وحذراً من الموت.

إبراهيم ونمرود

أما الملك نمْرُود فقد انتهى إليه شُعاعٌ من ذلك النور الذي بُهِرَ به قومه، واقتحمت عليه قصرَه مَوْجَةٌ من هذا التيار الجارف، وترامى إليه خبرُ إبراهيم ومعجزَته الخالدة، فطغى طُغْيانه، وزادَ بُهْتانه؛ أليس من آلهتهم وإبراهيم يكيل القَدْح[٦] فيها، ويعيب على القوم عبادتها!

---

(١) الوَثَاق: ما يُشدُّ به كالحبل.
(٢) خبت النار: سكنت وخمد لهبها.
(٣) الأوار: الحر.
(٤) شَدَه فلاناً: أدهشه وشُدِه: دهش بالأمر.
(٥) السُّؤدد: المجد والشرف.
(٦) القَدْح: التعييب.

فدعا إبراهيم إليه، فلمّا مثلَ بين يديه صوَّب إليه نظره، وقال: ما هذه الفتنة التي أيقظتها، وتلك النار التي أشعلتها، وما هذا الإلٰه الذي تدعو إليه؟ هل تعرف ربًّا غيري، وإلٰهاً يستحق العبادة دوني؟! من الذي يعلو مَقامه عليّ، ويرتفع قدرهُ فوق قَدْري! ألا تَرَاني أُصَرِّفُ الأمورَ وَأُدَبّرها، وأنقضها وأبْرِمها؟ فأمْرِي نافذ، وحُكمي قاطع. عيونُ الناس متطلعةٌ إليّ؛ وآمالهم متعلقة بي؛ فهل تجد لي مخالفاً، أو تَرَى عليَّ خارجاً؟ فلماذَا خرجتَ على إجماعهم، وانتقضت على معبوداتهم! ما ربّك الذي تدعو إليه، ومن إلٰهك الذي تحُثُّ الناس على عبادته؟!

فأجابه إبراهيم في ثباتِ جَنَان[1]، وطلاقة لسان؛ وقال: ربي الذي يحيي ويميت؛ فهو وحدَه يمنَحُ الحياة ويسلبها، وينشىء الخلق ويُفْنِيه؛ ويبدع العوالم الحيّة ويُميتها؛ فألقمه الحجرُ؛ وأفحمه بالحجة.

ولكن نمْرُود أخذته العزة بالإثم؛ فكَابر وجادل بالباطل؛ وقال: أنا أُحيي من أساء بالعفو عنه؛ فيَنْعم بالحياة بعد أن يمثل له شَبَحُ الموت؛ ويتنسم ريحَ الحياة بعد أن تقطعت نفسه حسرات على الحرمان من مَتَاعها؛ وأوصِدت في وجهه أبوابُ الأمل فيها؛ وأنا كذلك أميتُ مَنْ أشاءُ بأمري وأقضي عليه بحكمي، وسرعان ما تزهَق رُوحه، ويحْرَم حياته؛ فلم يأت ربك بِدْعاً ولم يفعل عجباً.

وَاربَ[2] نمْرُود في حِواره، ومارى[3] في جداله؛ إذ نأى عما ذكره إبراهيم من إنشاء الحياة وخَلقها، ومَنْحها وسلبها، ولجأ إلى المرَاوَغة، ولكن أين يجول هذا الغِرّ الجاهل! وكيف يستطيعُ الثباتَ أمام عَزْم النبوّة الباهِر؟

أجابه إبراهيم بقوله: إنّ الله سَخّر الشمسَ، وجعل لها نظاماً لا تحِيدُ عنه، فهو يأتي بها من المشرق، فإن كنتَ كما تَدَّعي قديراً، وكما زعمت إلٰهاً، فغيِّر هذا النظام الذي جَرَت به سُنَّة الله، واقتضتْهُ إرادتهُ، وأْتِ بها من المغرب.

---

(١) الجنان: القلب.

(٢) وارب: خاتل وخادع.

(٣) مارَّ الرَّجُل: عالجه وتلوى عليه ليصرعه يقال امرأته تمارُّه: تخالفه وتلتوي عليه.

فبُهِتَ[١] الذي كفر، إذ بان ضلالُهَ، وظهَرَ كِذبُه، ووضح بُهْتانه، وبدت جهالته، فقد قرعَتْه الحجَّةُ البالغة، وصدمته الآيةُ البينة، وخاف أن يُثلّ[٢] عَرْشه، وتُدَك قوائمُ مُلكه؛ فصار إبراهيم أبغضَ الناس إليه، وأشدَّهم عداوة له؛ ولكن ما يصنع به، وقد أتى بعقيدةٍ جديدة دعمها بمعجزة باهِرَة؟

ما أظنه إلا أوجَس خِيفةً منه، وخاف أن يكْتَسحَ إبراهيم مُلكه، ويقوِّضَ عَرْشه، إن أعلن له العداء، أو كشف له عن البغضاء، لذلك أبقى عليه، وهو يتربّصُ به الدوائر، وينتظرُ أن تحينَ لهُ الفُرْصة للانتقام منه.

ثم بثّ عُيونه ليحذّروا الناسَ اتّبَاعه، ويبعدوهم عن حظيرته؛ فكان إبراهيم يَرى من التضييق عليه، والإضرار به ما يراه المصلحون في كل أمة؛ فضاقت نفسه بالمقام بينهم، وارتأى الهجرة عنهم، وفرَّ بدينه من تلك الأرض الجرْداء[٣] التي لم يزدَهِر بها نَبْتَهُ، ولم يُثْمِر فيها غَرْسه؛ وهاجر إلى أرض قد تنمو فيها دعوته؛ ويخصِبُ فيها بذره، وترك وطنه وقومه بعد أن حقَّتْ عليهم كلمةُ العذاب؛ إذ لم يؤمنوا بعد إذ جاءهم الهدى، وكفروا بعد أن قامت البينة، وسار حتى حطّ رحاله بفلسطين.

* * *

إبراهيم يهدي قومه عن طريق الحوار

ألْقى إبراهيم عصاهُ في حَرّان[٤]، فاراً بدينه، تاركاً وطنَهُ وقومه، عَلّهُ يجد في غيرهما آذاناً مُصْغِية، وعُقولاً ناضجة، ونفوساً طاهِرة، ونزل بين ظَهْرَاني أهل هذه البلاد؛ وسرعان ما تَبَين ضلالهم، وعَرَف زيغهم؛ إذ وجدهم يعبدون الكَواكِب من دون الله، فأراد أن ينبِّههم على خطئهم، ويرشدهم إلى فساد اعتقادهم؛ فاختار لذلك سبيلَ العقل، وطَريق الحجة، حتى إذا ما استبانوا الحق، وتبينوا الرشْدُ سلكُوا سبيله، وأصغوا إلى ندائه واتبعوا دعوته.

---

(١) بُهت: دُهش وتحير.
(٢) ثَلَّ الدار: هدمها.
(٣) الجرداء من الأرض: التي لا نبت فيها.
(٤) حَرَّان: مدينة من جزيرة أقور من ديار مضر.

جنَّ[١] عليه الليل، وستره الظلام، فرأى كوكباً مما يعبدون، وهُوَ بين جماعة منهم يتحدَّثون ويسمُرُون، فجاراهم في زعمهم وحكى قولهم، فقال: هذا ربي!

طريقٌ في الحوار حكيم، ومنهج في الكلام قويم. انظر إليه يحاكيهم في اعتقادهم، ولا يُعلنُ مخالفتهم، أو يسفه أحلامَهم، ويحقِّر معبوداتهم فذلك أدْعى إلى إنصاتهم لقوله، وتفهمهم لحجته، ثم لم يلبث أن كَرَّ على قولهم ينقضه، ورجع إلى مذهبهم يزيِّفه، ولكن من طريق خفي، يُنْبِئُ عن سداد رأيه، ونقاء بصيرته!

فلما أفَلَ[٢] هذا الكوكب وغاب هذا النجم تحت الأفق، تفقَّدَه فلم يجده وبحث عنه فلم يره، فقال: لا أحبُّ الآلهة المتغيرين من حال إلى حال، المتنقلين من مكان إلى مكان، ثم عرَّض بآلهتهم، وتنقص معبوداتهم، وأعلن بُغْضَه لها، وتبرُّأه من حبّها.

ولما رأى القمر بازغاً[٣]، وهو أسطعُ نوراً من ذلك الكَوْكب، وأكْبَرُ منه حَجماً، وأكثر نفعاً، قال: هذا ربِّي!، استدراجاً لهم، واستهواءً لقلوبهم.

فلما أفل أيضاً واحتجب، واختفى نوره واستتر، قال ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾﴾[٤] بياناً لهم أنَّ الله مصدرُ الهداية، ومانحُ التوفيق عند الشكِّ والحيرة.

جاوَز التعريضَ إلى ما هو أفصح منه، لمَّا أنِسَ منهم سكُوتاً على بُغْضه لآلهتهم وإغضاء[٥] عن ذمِّه معبوداتهم، وأبان أنه غير مطمئن النفس، مُبَلْبَلُ الفكر، لم يهتدِ بعدُ إلى طريق الحقِّ، ولمَّا يقفُ على سبيل الرُّشد، وطلب من الله أن يُنْقِذَهُ من ذلك الضلال البعيد، ويغيرُ له هذا الليل البهيم[٦] فهذا الذي يعبُدونه مخلوق مسيَّر، لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرًّا.

---

(١) جَنّ الليل: أظلم.
(٢) أفل: غاب.
(٣) بازغاً: طالعاً.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ٧٧.
(٥) أغضى عن الشيء: سكت وصبر.
(٦) الليل البهيم: الذي لا ضوء فيه إلى الصباح.

ثم رأى الشمسَ بازغة يتألّق نورُها، وينبعث شُعاعها، وقد كست الدنيا جمالاً، وملأت الأرض حياةً وبهاءً، وأرْجاء الكَون نوراً وضياءً، فقال هذا ربي، هذا أكبر من كل الكَوَاكب، وأكثر نفعاً، وأجلَّ شأناً فلما أفَلَتْ كغيرها، وغابت عن عُبّادها رماهم بالشرك، وَوَسَمَهم بالكُفْر، وقال: إني بريء مما تشركون، فهذه الكواكب التي تنتقل من مكان إلى مكان، وتتحول من حال إلى حال، لا بدّ لها من خالق يدبِّرُها ويحَرِّكها، وإلٰه يُطلعها ويسيِّرها، فهي لا تستأهل عبادة ولا تستحقُّ إكباراً ولا تعظيماً.

وبعد أن أعلن انصرافه عن آلهتهم، وبراءته من معبوداتهم، وأفاض في الحديث عمن يخصّه بخضوعه. وتوجَّه إليه بعبادته، فقال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا[1] وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾[2].

حاجَّهُ قومُه في ذلك الذي فجأهم به، ودعاهم إليه، عساهُ أن يرجع إلى عقيدتهم أو يَرْتَدَّ عن ادِّعائه إشراكهم، فقال: أتحاجُّوني في الله وقد هداني إلى الطريق المستقيم، وأرشدني إلى الطريق القويم؟

خوَّفوه بطْشَ آلهتهم، وحَذَّرُوه أن تصيبَه بسوء، أو تُلْحِق به أذًى إذا نكَلَ[3] عن عبادتها، وتجانف[4] عن الخضوع لها، ولكنه لم يستمع إلى نُصْحهم ولم يستجب إلى دعائهم.

وتعَجَّب أن يخَوِّفوهُ شيئاً مأمُونَ الجانب، ولا يملكُ ضرًّا ولا نفعاً، وهم لا يخافونَ إشراكهم بالله ما لم ينزِّل به عليهم سُلطاناً، وقد كان عليهم أن يحذَرُوا الله ويخافوا عقابه، فقد ارتكَبُوا إثماً كبيراً، واقترفوا ذنباً عظيماً، فجزاؤهم - إن استمرُّوا على كفرهم - جهنم وبئس المَصِير.

إبراهيم في مصر

حمّ القَحْط، وشَمِل الجدبُ[5] والغَلاَء، وضاقت سُبُل العيش في الشام، فرحل

(١) حنيفاً: مائلاً إلى الدين القيم.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٧٩.
(٣) نكل: ترك وانحرف.
(٤) جَنَفَ عن الشيء: عَدَل عنه ومال.
(٥) جَدَب المكان: يبس لإحتباس الماء عنه.

إبراهيم إلى مصر، تصحبُه زوجُه سارّة، وَهَبَط أرضها حين كان القابضُ على زمامها والمسيطرُ على أمورها أحدَ ملوك العرب العَمَاليق، الذين استعبدُوا بالملك آونةً من الدهر.

وكانت سارّة ذاتَ جمال باهر، فوشَى بها أحدُ بِطانة[١] السوء إلى الملك، وأغراه بجمالها، وزيّنَ له حُسْنها، وحبَّبَ إليه الاستحواذ عليها، فصادفت هذه المقالة رغبَةً في نفسه، وهَوىً في فؤاده، فدعا إبراهيمَ إليه، وسأله عما يربطهما من سبب، وَما يَصِلُ بينهما من قرَابة.

ففطنَ إبراهيم إلى مأرَبه، وعرف مقصدَه، وخاف إنْ أخبره أنها زوجته بيَّتَ الشرَّ له، وعمل على الإيقاع به، لتخلُصَ لهُ من دونه، ويستأثر بها من بعده.

فقال له؛ هي أُختي ـ والأختُ كما تكون في النسب تكون في الدين واللغة، والإنسانية.

فهمَ الملك أنها ليست بذات بَعْل، فأمرَ أنْ يذهَبُوا بها إلى قصره، ويسوقوهَا إلى مخدعه[٢]، ورجع إبراهيم إلى زوجته، فأخبرها بِقصَّته، وطلب إليها أن تكُونَ مُصَدَّقة لقوله، مؤكدة لخبره، ثم أسلمها لِعَيْنِ الله تحرسها، وعناية الله تَرْعاهَا وتَحْفظها.

أُدْخِلت إلى قصره، وزيِّنت بفاخر الثياب وثمين الحِليّ، ولكنها لم تعبَأ بهذا الزخرف البرَّاق، ولا بذاك البَذْخ[٣] الخلاّب[٤]، ولم تُعْنَ بما أحيطت به من نعمة، وما رأتْ من سَعَةِ السلطان وبَسْطة العيش، ولم يُنْسها كلُّ ذلك الوفاء لزوجها والاستمساك بدينها، وجلست مكتئبَةً حزينة؛ بل انتبَذت[٥] مكاناً قصيًّا[٦].

ولما أقبَل الملك عليها، ورأى ما بها من لوعة وأَسى، حاول أن يخفف من حزنها،

---

(١) البطانة: صفيُّ الرجل يكشف له عن أسراره.
(٢) المخدع: الحجرة من البيت.
(٣) بَذَخَ: علا فبان عُلُوه ويقال: شرف باذخ.
(٤) خَلَب فلاناً خلاباً: خدعه وفتن قلبه.
(٥) انتبذ: اعتزل ناحية.
(٦) القصي: البعيد.

ويؤنسَ وَحشتها، ويزيل اكتئابها، فجفلت، وانتكَسَ[١] يحسُّ اضطراباً في نفسه، وَوَجِيباً في قلبه، وأراد أن يُعيد الكَرَّة، فعَادَ إليه اضطرابُه، وعاوَده انتكاسُه؛ فأوجسَ خيفةً منها، وأوَى إلى فراشه، وغطَّ في نومه، ورأى رؤيا استبان بها وَجْهَ الحقِّ، وتبيَّن منها سبيل الرشد، وعَرَف أن لها بَعْلاً، وأن عليه أن يخلِّي سبيلها، ويتركها وشأنها، وألا يمسها بسوء، أو يقَربهَا بإثم.

فلما أفاق من نومه رأى أن لا مَنَاصَ من إطلاق سراحها، فوهَبها هَاجر خادماً لها، وأسلمها إلى زوجها.

فهل ترى مِحْنةً أشدَّ، وفتنةً أعظم من ذلك؟ رجل غريب يَفِدُ إلى بلد يسعى فيه لجلب الرزق، فتسلَبُ منه زوجُه، ويفرَّق بينه وبين أهله ولكن الذي نجى إبراهيم من حَرِّ النّارِ وسعيرَهَا، حفظهُ من وصمة العار، ونجَّاهُ من الظلم والعدوان.

أقام بمصر ما شاء الله أن يُقيم، وكان وادعَ النفس، دَمِث[٢] الخلق، ليِّن العريكة[٣]، طويل الأناةِ، دَؤوباً على العمل؛ لذلك كثُرَ ماله ونمت أنعامُه، وارتفع ذكْرُه، ولكن القومَ حسدُوه على مكانته، ونقموا عليه سعة نعمته، وسَوَّلت لهم نفوسهم أن تمتد أيديهم إليه بالأذى، وأحسَّ منهم إبراهيم جَفوة، فأزمع[٤] الرحيل عنهم، وجعل وجهتَه فلسطين، تلك الأرض المقدسة التي اتخذها قبلُ موطناً، وأقام فيها زمناً. فانطلق حتى أَلْقى بها عصا التّسْيَار.

---

(١) انتكس: انقلب.
(٢) دَمِث: سهل ولان.
(٣) لين العريكة: سلس منقاد. العريكة: الطبيعة والنفس.
(٤) أزمع: عزم وجد.